

سلسلة معرفة الله (٦ - ١٥)

دروس من هدي القرآن الكريم

معرفة الله - عظمة الله

الدرس السادس

آيات من بداية سورة الحديد

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

بتاريخ: ٢٣/١/٢٠٠٢م

اليمن - صعدة

هذه الدروس نقلت من تسجيل لها في أشرطة كاسيت، وقد أقيمت ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة الخلية العامية. وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو. والله الموفق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.
الكلام من بدايته يتجه نحو محاولة محاولة في أنفسنا كيف نشق بالله سبحانه وتعالى، كيف تعظم ثقتنا بالله؟ كيف تكون ثقتنا بالله قوية؟.

وقلنا بالأمس: بأن الحديث عن نعم الله سبحانه وتعالى يتسع الحديث عنها في مجالاتٍ أخرى، وبشكلٍ آخر، من حيث: كونها مظاهر من مظاهر حكمته، وقدرته، وعلمه، وتدبيره، ورعايته، وملكوته، وألوهيته، وربوبيته.. إلى غير ذلك.

وشيء آخر مما يساعد على أن نعرف الله سبحانه وتعالى بالشكل الذي نحصل من ورائه على تعزيز ثقتنا به سبحانه وتعالى هو: حديثه في القرآن الكريم عن ذاته سبحانه وتعالى في الثناء على ذاته، وعن ما ذكره من مخلوقاته الكثيرة باعتبارها مظاهر من مظاهر ملكوته، وأنه هو من له الملك، هو رب العالمين، هو من له الملك، ونفاذ الأمر في العالمين.

منها: ما ذكره سبحانه وتعالى في أول [سورة الحديد]: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الحديد). سبح لله: نزهه، وشهد بنزاهته وقدسيته، نزاهته عن كل ما لا يليق به، نزاهته عن كل عيب ونقص، نزاهته عما لا يليق بكماله، فكل ما في السماوات والأرض يشهد بنزاهة الله، سواء من كان ينطق بذلك، أو من كان في نفسه شاهداً على ذلك.

هو العزيز: المنيع الذي لا يقهر، لا يُغلب ولا يُغالب، هو غالب على أمره، هو العزيز الذي يمنح من عزته من اعتربه، يمنح من عرته أوليائه، فيصبحون كما قال عنهم: {أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} (المائدة: من الآية٥).

الحكيم في ما يصدر منه، الحكيم في تدبيره، الحكيم في هدايته، الحكيم في تشريعه، الحكيم في تدبيره لشؤون خلقه.

{لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (الحديد) هو ملك السماوات والأرض، ملكها ومالكها. قد يكون الإنسان في هذه الدنيا ملكاً فيحدث انقلاب فيصبح مطروداً منفيماً فيملك غيره، أما الله سبحانه وتعالى فهو الملك، هو المالك، هو الملك ذو الملك الدائم في سلطانه {يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الحديد: من الآية٢)، كل شيء يريده هو قادر عليه، {هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ليس هناك أشمل من هذه العبارة، ولا أوضح منها في: أنه لا أحد يستطيع أن يحول بينه وبين ما يريد أن ينفذه، فهو قادر وهو قاهر في نفس الوقت.

{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الحديد:٣) ثناء على الله، وبيان لكماله المطلق سبحانه وتعالى. {هُوَ الْأَوَّلُ} عبارة: {الْأَوَّلُ} تعني: لا شيء قبله، لا أول لأوليته، ليس هناك شيء سبقه أبداً في الوجود، {هُوَ الْأَوَّلُ} وهذه العبارة أفضل بكثير من عبارة [المتكلمين] التي يرددونها: [القديم] فيسمون الله قديماً، وهذا - في ما اعتقد - لم ترد في القرآن الكريم ولا مرة واحدة: أن يصف نفسه، وأن يجعلها من أسمائه [القديم]؛ لأن كلمة: [قديم] ليست مما يصح أن يمدح الله بها سبحانه وتعالى؛ لما فيها من إيهام وهو: أنها توهم العمق الزمني، توهم العمق الزمني، كلمة: قديم، وهي في نفس الوقت إنما تعني.. تعني ماذا؟ أنه لم يسبقه عدم، [قديم]: لم يسبقه عدم، لم يكن محدثاً ثم وجد.

بينما كلمة: {الأول} هي أهم بكثير، فهي لا توهم هذا الإيهام، وهي تتجه إلى نفس المطلوب بدايةً، دون ترتيب مقدمات، الله هو الأول فلا شيء قبله، وهذا هو المطلوب: أن تثبت أن كل من سواه.. أن كل من سواه هو مخلوق له سبحانه وتعالى.

{و} هو {الْآخِرُ} بعد فناء الأشياء، {و} هو {الظَّاهِرُ}، الظاهر لعباده، الظاهر لمخلوقاته، ليس غائباً كما يقول [المتكلمون]! فيقولون: [قياساً للغائب على الشاهد]، يعرف هذا من قرأ في كتب [علم الكلام] وهذه العبارة القاصرة التي ترسخ غياب الله في ذهنية الإنسان، وفعلاً الإنسان الذي يتأمل سيجد كم كان لهذه من آثار سيئة جداً، ترسيخ في شعور الإنسان غياب الله بهذه العبارات: [من باب قياس الغائب على الشاهد] وهكذا يكررونها.

ولهذا لما جعلوا الله غائباً اتجهوا لیبجثوا عن وجوده هو، عن هل هو موجود أو لا، فبدأوا إلى ترتيب مقدمات معينة، تبدأ بالحديث عن [أن هذه الأشياء وجدناها مُحدثة؛ لكونها ملازمة لعلامات الحدوث، إذاً فهي مُحدثة، إذاً هناك من هو مُحدث لها، إذاً هناك مُحدث]، وعلى هذا النحو يتحركون فيجعلون الله سبحانه وتعالى بالنسبة لنا بحاجة إلى أن نستدل على وجوده بأي شيء من مخلوقاته، بينما هو يصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه: {الظَّاهِرُ}، هو أظهر من مخلوقاته، هو أظهر من مخلوقاته، هو من غرَّرَ في نفوس عباده معرفته، المعرفة الجميلية، لم يغب اسمه عن ذهنية البشرية.

والقرآن الكريم أكد هذه، وهو يذكر لنا كيف كان الأنبياء يدعون أممهم إلى الله، وكيف كانت تلك الأمم إنما تنازع في ما يتعلق بالوحدانية، أنها غير مستعدة أن تتخلى عن الآلهة الأخرى، لينفرد الله هو وحده بعبادتهم له، وينازعوا الأنبياء في أنه بعد لم يثبت لديهم أو أنهم يريدون أن يثبت لديهم بأنهم رسل من الله، ليس هناك إشكالية حول وجود الله، حتى ولا عند الكافرين {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} (الزخرف: ٩) {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} (الزخرف: من الآية ٨٧) ولئن سألت من؟ سألت الكافرين.

بل يقول الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم (صلوات الله عليهم): «أن الله غرَّرَ معرفته في نفوس عباده من الملائكة والإنس والجن» حتى قال أيضاً: «بل والطير والحيوانات الأخرى كلها تعرف الله». وكل ما تشاهده، كل ما تشاهده أنت في واقعك تشهد بسبق خالقه، بسبق صانعه في فطرتك قبل أن تنطلق لترتب مقدمات كلامية منطقية: [هذا مُحدث فلا بد له من مُحدث، فثبت أن له مُحدث]. من أين قلت: [مُحدث]؟ أليس بعد أن شهدت بأن فيه علامات التدبير والخلق، إذاً أنت تشهد أولاً، أنت تشهد أولاً في فطرتك بوجود الخالق، وتشهد بسبق الخالق، وإلا لما عرفت أن هذا فعل، ولما انطلقت لترتب هذه المقدمة.

الله سبحانه وتعالى هو أظهر من كل مخلوقاته؛ ولهذا - في ما أفهم والله أعلم - لم أجد في القرآن الكريم آية واحدة - على الرغم مما ذكره الله سبحانه وتعالى من مظاهر قدرته ونعمته وحكمته و.. إلى آخره - أن ذكر شيئاً منها بعبارة: [أليس ذلك يدل على أنني كذا]، لا تجد هذه في القرآن الكريم، ليس هناك آية تقول: [أليس ذلك دليل على أنني قادر، أليس ذلك دليل على أنني حي، أليس ذلك دليل على أنني حكيم، أليس ذلك يدل على أن لها خالق، يدل..]، لم ترد هذه إطلاقاً؛ لأنه هو {الظَّاهِرُ}، هو {الظَّاهِرُ}، هو الذي فطر النفوس على معرفته، بل لم يأت أحد ليسي صمناً باسمه، أو يسمي بشراً باسمه، أو يسمي شيئاً باسمه، الذي هو اسم لذاته سبحانه وتعالى المقدسة: [الله]، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} (مريم: من الآية ٦٥) كان المشركون يسمون الآلهة [هبل، اللات، العزى، ود، سواع، يعقوب، يعوق].

الله معروف لدى البشر أنه [الله]، هو الإله، هو الذي خلق السموات والأرض، هو الذي خلقهم، هم يعرفون هذه، لم يأتوا ليسموا صنماً آخر باسمه أبداً، هو إله، بل هو إله مقدس لدى البشر، إله مقدس لدى البشر في كل مراحل تاريخ البشرية. بل يقول أحد الكتاب أيضاً: بأنه في هذا العصر - في استبيان - ظهر بعد أن أكتشفت مناطق بدائية، قبل بدائية، وعرف بأن الله معروف لديها، قبل بدائية في مجاهل أفريقيا وفي مناطق أخرى في هذا العالم، وما يزال بعضهم شبه عراة، والله معروف لديهم.

هو {الظَّاهِرُ}؛ لهذا كان هناك تأثير سلبي وسيئ جداً لترتيبات المتكلمين المنطقية، لمقدماتهم المنطقية حيث جعلونا نحتاج نحن - حتى نعرفه - أن نستدل عليه بأي شيء من هذا لنعرف وجوده من حيث المبدأ: أن هناك إله، أن هناك [الله].

كيف وهو الذي قال سبحانه وتعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس:٧-٨) كيف يلهمها فجورها وتقواها ولا يلهمها معرفته، ولا يفطرها على معرفته، وهي من أهم.. من أهم ما يمكن أن تسير بالنفس نحو الهدى، وتصرفها عن الفجور - معرفته سبحانه وتعالى - هل مجرد أن تهتدي إلى ما هو تقوى وإلى ما هو فجور أهم من معرفته سبحانه وتعالى؟ هو قال: {أَلْهَمَهَا} {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} فكيف لا يلهمها ما هو أساس.. ما هو الأساس في أن تنطلق في التقوى وتبتعد عن الفجور، وهو معرفته سبحانه وتعالى؟!.

فالمعرفة الجمالية لدى البشر قائمة، ومترسخة في ذهنيتهن، بما فطرهم الله، بما فطر نفوسهم عليه، وبواسطة رسله المتعاقبين جيلاً بعد جيل، وكتبه التي أنزلها إليهم، فلم يغب ذكره عن ذهن البشرية، ولا عن مسامعها، فهو {الظَّاهِرُ}.

يجب أن نلغي أن نلغي تماماً استخدام عبارات المتكلمين: [الغائب.. الغائب.. قياساً للغائب على الشاهد، قياساً للغائب على الشاهد]، وأشياء من هذه.

وأول ما يرسخون في نفسيتهك: أنك تقوم تبحث عن من هو الذي أسدى إليّ هذه النعمة، نُدوّر هنا وهنا.. نجد أن هذه النعم لها محدث، إذآ لها محدث. تمام اتفقنا.. من هو؟ بقي الإشكال من هو؟ لم يستطيعوا أن يجيبوا عليه.. من هو؟ لأن غاية ما يمكن أن تحصل عليه من خلال تلك المقدمات هو ماذا؟: أن لها صانع. لا بأس لها صانع، لكن من هو؟ وأي دليل نظري ترتبه على هذا النحو يمكن أن يوصلك إلى الله؟ لا تجد.

لا يوصلك إلى الله إلا فطرتك، وإلا أنبيأوه وكتبه؛ ولهذا نجد: [وهو الله] هم يقولوا هكذا: [فدل على أن لها محدث... وهو الله تعالى]! هذه القفزة.. القفزة هذه ليست نتيجة منطقية لترتيب المقدمات هذه أبداً، نتيجة منطقية هو أن لها محدث، لكن قولك: [وهو الله] من أين أتيت بها؟ إنما من خلال أنبيائه، من خلال كتبه، من خلال ما فطر النفوس عليه؛ لأن [وهو الله] هو يأتي بعد سؤال: إذآ فمن هو هذا المحدث؟ من هو؟ رتب لي مقدمات توصلني إلى أنه هو الله، الله.

[طَيِّب] الله: هو اسم للذات المقدسة، علم للذات المقدسة، الله سبحانه وتعالى، وهو الأساس لبقية أسمائه، تأتي بقية أسمائه في مقام الثناء بعد أن يكون الأساس الذي تضاف إليه وتستند عليه هو اسمه سبحانه وتعالى: الله. فأني متكلم يستطيع أن يوصل بتسلسل استدلالاته المنطقية إلى الإجابة على من هو؟ ثم ليقول لي: هو الله.

الله إنما أتى من خلال الفطرة التي فطر النفوس عليها، ومن خلال أنبيائه ورسله، وليس عندما تقرأ في [العقد الثمين] أو تقرأ في [الأساس] أو تقرأ في كتب أخرى من هذه كتب المتكلمين المصبوغة بأساليب المعتزلة وعباراتهم فيقول لك: وهو الله.. وهو الله.. وهو الله.. الخ.

هو الله، لكن ليس على هذا الاستدلال الذي ذكرته، هذا الاستدلال يجعل الله بحاجة إلى أبسط مخلوقاته في أن يدل عليه، ونحن - كما قلنا سابقاً - لم نجد في القرآن الكريم آية واحدة بعد أن يذكر الله كثيراً من مظاهر خلقه، ومفردات هذا الكون فيقول: [أليس ذلك دليل على أنني حي، أو على أنني قادر]؟. أبداً يقول لك: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} (القيامة:٤٠) أي أليس من صنع هذا بقادر على أن يصنع هذا؟.

لاحظوا حتى في [سورة الحج] لم يفرق بين الموضوع إلا حرف واحد هو حرف [الباء]: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الحج:٦) بعد أن ذكر في بيان الأدلة التي تقمع كل ذلك الريب الذي لدى المشركين في ما يتعلق بالبعث {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}، لم يقل: ذلك أن الله هو الحق؛ فتوهم العبارة: أنه استدلال على أنه حق بهذه الأشياء، فهي دلت على أنه حق. ذلك بسبب أنه هو الحق، بسبب أنه هو

الحق كانت على هذا النحو. {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، أي ولأنه يحيي الموتى، ولأنه على كل شيء قدير.

في آخر سورة [القيامة] قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} {القيامة: ٤٠-٣٦} هل تستطيع أن تقول: أن ذلك هو إشارة إلى الله؟ لا.. لا.. أليس هذا دليل على أن من قدر عليه هو قادر على أن يحيي الموتى، فيوجه الاستدلال إلى الفعل وليس إلى الدلالة عليه هو، من قدر على هذا قادر على هذا، من صنع هذا قادر على صنع هذا، وهكذا تأتي.

تجد أيضاً في [سورة هل أتاك حديث الغاشية] بنفس الأسلوب؛ بحيث لو لم تحمله على نفس الطريقة ستقول الاستدلال هذا غير منطقي. عندما قال - وهو يبين قدرته سبحانه وتعالى على البعث - : {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} {الغاشية: ١} القيامة.. إلى أن قال: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} {الغاشية: ١٧-١٩} في مقام ماذا؟ في الاستدلال على أن هناك بعث، لا بد من بعث.

ما العلاقة بين الجمل والجبل والسماء منطقياً - كترتيب مقدمات منطقية - وبين البعث؟ ما العلاقة بين قامة الجمل وارتفاعه وطول قوائمه وبين البعث؟ هل هناك علاقة؟ إلا من هذا القبيل: أن من قدر على هذا، وظهر في هذا حكمته وقدرته على كل شيء، هو قادر على هذا الشيء الآخر؛ فلهذا كان الجمل دليلاً على البعث، من حيث أن من قدر على صنع هذا الجمل، وعلى خلق هذا الجبل، وعلى رفع هذه السماء بما فيها من وضوح على أنه هناك قدرة لا حد لها، لا يعجزها شيء.. إذاً فالبعث ممكن، فهو قادر على أن يحيي الموتى، قادر على أن يبعث الناس من جديد.

ترسخ هذا الأسلوب حتى لا نستطيع أن نخلص أنفسنا منه، ونحن نتحدث، ونحن نَعْظُ، ونحن نرشد، نقول: [فدل على أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، دل على أن الله كذا، ودل على أن الله..]، ونحن نستخدم هذه؟ ترسخت فينا بشكل رهيب، لكن هي خلاف أسلوب القرآن الكريم الذي يوجه نظرك إلى المقارنة بين الأفعال: ما في هذا من مظاهر يدل على أن من قدر عليه قادر على كذا، لا يأتي على هذا النحو: فدل على أنه قادر، فدل على أنه حكيم.

فعلاً بأسلوبنا القاصر ممكن أن نستخدمها، ممكن أن نستخدمها، ولكن لأن الله هو الظاهر الذي حكم بأنه ظاهر، لا يحتاج إلى شيء يُستدل به عليه، هو أظهر من كل شيء، هو أظهر من كل شيء، فلم يأت هو سبحانه وتعالى ليستخدم هذا الأسلوب الذي نستخدمه نحن: [فدل على أنني على كل شيء قدير، دل على أنني حكيم، فدل على..]، تأملوا هذه، هل تجدوها في القرآن؟ لا أعتقد.

وهي قضية مهمة، قضية مهمة جداً: تذكّر حضور الله، وتذكّر شهادته هي الغاية المهمة من وراء كثير من الأذكار التي شرعت: التسبيح، التهليل، التكبير، التحميد، تذكّر النعم، أن لا تنساه، أشياء كثيرة جداً كلها تصب في هذه الغاية هو: استشعار حضور الله سبحانه وتعالى وشهادته.

فكيف تأتي في الكتب التي موضوعها هو: معرفة الله فنقدمه غائباً، ما الذي حصل؟ بعد أن فهمناه غائباً وترسخ في مشاعرنا غائباً، انطلقنا نحن لنحكم أنه في الواقع غابت أعلام الهدى، فكل واحد منا فليقم ينظر هو من جديد يبحث عن خالقه، كل واحد يقوم ينظر ويجتهد يبحث عن ما هي الأحكام التي يدين الله بها؛ لأنه فُدم في الصورة: أن الله غاب من يوم مات نبيه (صلوات الله عليه وعلى آله) وانقطع الوحي فغاب.

بينما هو يذكّرنا بأنه لم يغيب، في قصة عجيبة في القرآن الكريم قصة الغنم التي رعت الزرع في أيام سليمان حينما قال: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} {الأنبياء: ٧٨} لا حظوا العبارة هذه: {وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} {الأنبياء: من الآية ٧٩}

فيأتي الآن مجتهدون وعلى طول تاريخ الإسلام ويتعاملون مع القضايا وكأن الله غائب، وكأنه ارتفع عن هذا العالم، وانقطع بانقطاع الوحي الاتصال به .

هو يذكر أن قضية بسيطة: قضية غنم رعت قليل زرع، داود وسليمان، داود نبي وسليمان ابنه قبل أن يكون نبي، لكنهم من المصطفين الأخيار. وهم يجول في أذهانهم أو يترادون الكلام كيف يحكمون فيها، الله قال: {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} ماذا بالطبع بعد أن ترفع القضية إلى داود وسليمان بالطبع أن الذي يجول في خاطره هو: ما هو الحكم فيها؟ حتى وإن كان في قرارة نفسه مُرَبَّى على أن ينتظر الوحي، هذا بالطبع يجول في نفسه، يتساءل كيف يكون الحكم فيها؟ هو نبي عن طريق الوحي يوحى إليه، وابنه سليمان من ورثة الكتاب هو ممن اصطفى ليكون من ورثة الكتاب {فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} ألم يقل الله: أنه تدخل هنا؛ بأنه شاهد؛ تدخل في الحكم في قضية زرع، رعته أغانم شخص آخر على شخص، فَهَّم الحكم في هذه القضية سليمان، هو يوحى إلى داود وهو أيضاً يفهم سليمان، فهو يوحى إلى أنبيائه وهو يفهم أعلام دينه .

وهذا هو ما قاله [الإمام الناصر الأطروش] فيما حكى عنه شارح الأساس أنه يقول: «أن الاجتهاد في القضايا هو من اختصاص أئمة أهل البيت». وفعلاً، ولكن وفق الثقافة التي قدمت في مجال معرفة الله قُدم غائباً، وارتفع عن هذا العالم، فحتى الإنسان يقوم هو يبحث حتى عن الله، حتى عن الله، كل واحد ينظر يدور فين الله؟ كيف الله.. الخ!.

هل يمكن في قضية زرع بسيطة أن يقول الله بأنه كان شاهداً {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ}، هو لا يغيب، وأن يتدخل فيها ففهمها سليمان وهناك أبوه داود نبي، ولم تترك المسألة للاجتهاد من قبل هذا أو هذا، على الرغم من أنه {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ}، أليس هذا؟ بلغوا درجة الاجتهاد وزيادة، {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ}، لكن لا، هو من يتدخل، ثم يهمل هذه الأمة وهي ستواجه قضايا كبرى ومستجدات كثيرة جداً وأحداث رهيبية، وأحداث كبيرة، يتركها وهي آخر الأمم، ويبعث إليها نبياً واحداً ثم يقول: هذا خاتم الأنبياء، وكتاباً واحداً ثم يقول: هذا آخر الكتب، ثم يقفل الملف، وينطلق الناس كل واحد يبحث عن إلهه وعن ما يتعبد به؟!.. يهمل الأمة وهو لم يهمل واحد فلسطيني أو ماذا أصله؟ رعت أغانم صاحبه عليه قليل زرع، فتدخل هو في القضية، وقال: أنه هو شاهد على حكمهم، وأنه فهم سليمان كيف يكون الحكم؛ لأنه شاهد، وهذه قضية فرعية طبعاً.. فرعية هذه [كل واحد يقول فيها: يا أخي مسموح]، وإلا يقول واحد فيها أطرف واحد با يقول له: [أعط له قليل حب بدل الحب الذي أكل منها]، أو عبارات من هذه.

فهو الشاهد، {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} {فصلت: من الآية ٥٢} الله في القرآن الكريم يؤكد لنا بأنه شاهد على كل شيء، وحاضر على كل شيء، ولو أنه ترسخ في ذهنيتنا ما رسخه القرآن الكريم لتفادينا كثيراً من الإشكالات، وكثيراً من هذا الانحطاط الذي وصلنا فيه؛ لأنه بسبب أننا لم نثق بالله؛ لأن الله لم يعد له حضور في نفوسنا، لم يترسخ في أنفسنا شهادته، شهادته وحضوره، وهو يقول في آيات كثيرة يرسخ أنه على كل شيء شهيد: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} .

وهو: {الْبَاطِنُ} سبحانه وتعالى فيما يتعلق بذاته فلا تدركه الحواس، ولا يمكن أن تقف الأذهان منه على كيفية، ولا يمكن أن يرى، ولا يمكن أن يحس، ولا يجس، ولا يمس.

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} هو باطن لكن لا يعني ذلك بأنه غائب عن الأشياء، لاحظ كيف تكرر هو ظاهر {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} هو باطن فيما يتعلق بذاته سبحانه وتعالى، لا يمكن.. لا يمكن أن نتخيل له كيفية، ولا أن نقول بأن بإمكاننا أن نراه أو نلمسه أبداً.. أن نراه بأبصارنا {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} {الأنعام: ١٠٣} هو بكل شيء عليم.

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } (العديد: من الآية٤) خلق السماوات والأرض، هذا العالم الكبير المترامي الأطراف - داخل هذا العالم - كما يقولون في هذا العصر وهم يقدرون المسافات ما بين الكواكب بملايين الأميال، ملايين الأميال المسافات ما بين الكواكب داخل هذا العالم الواسع، { فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } فيما يقدر بستة أيام من أيامنا، وإلا فليس هناك زمن، الزمن بالنسبة لنا في الأرض هو حركة الأرض التي يتألف معها الليل والنهار، حركة الليل والنهار، وحركة الأرض هذا هو الزمن.

فهو قادر على كل شيء، من خلق السموات والأرض في ستة أيام هو قادر على كل شيء، أفلا يكون قادراً على أن ينجز لأوليائه ما وعدهم به في الدنيا؟! لكن من الذي يثق؟. الذي يثق من يعيش حضور الله في ذهنيته وشهادته على كل شيء، من يكرر تدبره في القرآن الكريم وتأمله في القرآن الكريم، ويلقي عبارات الآخرين القاصرة في مجال معرفته، اللهم إلا من كان أسلوبه يدور حول أسلوب القرآن الكريم كأئمة أهل البيت القدامى الذين لم يتأثروا بالمعتزلة ولا بغيرهم، كالإمام الهادي والإمام القاسم بن إبراهيم، وفي ما نجد في [نهج البلاغة] من فقرات جميلة جداً في الحديث في مجال معرفة الله سبحانه وتعالى، هؤلاء هم من يدوروا حول القرآن.

{ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } الآيات من أولها هي تتحدث عن ماذا؟ عن عظمة الله سبحانه وتعالى، عن مظاهر قدرته العجيبة، هو خلق السماوات والأرض تحدث عن خلقها عن تكوينها، أليست هذه آية عظيمة على قدرته؟ على حكمته؟ وأنه وحده الذي له ملك السماوات والأرض؟.

{ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } تأتي إلى الحديث عن كلمة: { اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } بالمعنى الذي يقول الآخرون، أي: هناك عرش استوى عليه استواءً يليق بجلاله! انظر كيف ستهبط الآية إلى أحط مستوى؟ ما قيمة أن يقول الله لنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك عرشاً هو يستوي عليه؟ ما قيمته بالنسبة لنا في مقام الدلالة على قدرته سبحانه وتعالى، على تدبيره، على حكمته، على عظيمته وجلاله!. هل يمكن لأي شخص منا أن يتحدث بأن له سرير نوم [يرقد] عليه في بيته ما قيمة هذا؟ أن أقول: فلان عظيم وهو من أولياء الله وهو كذا وهو كذا ومعه أيضاً سرير في غرفته ينام عليه. هل لهذا الكلام قيمة؟. أو له كرسي في صالته يستوي عليه!.

القرآن الكريم كل مفردة داخله لها أهميتها { كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ } (هود: من الآية١) يتحدث عن خلق السماوات والأرض ويقول: وله أيضاً عرش يجلس عليه! ما قيمة هذه في مجال حكمته؟ في مجال قدرته؟ في مجال ماذا؟ بل قد تستوحي منها على هذا النحو: بأنه [ثم تعب ورجع يرتاح قليل على الكرسي حقه] هذا في منطقنا نحن نقول هذا: [عملت إلى بعد العصر وعدت إلى البيت لأستريح فألقيت بنفسي على الكرسي] ألسنا نقول هكذا؟ حينئذ يكون كلامك على الكرسي في مكانه صحيح؟ لكن في الدلالة على ماذا؟ على التعب، أنك قد تعبت.

{ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } عندما يقولون: هناك عرش، يعني: سرير أو كرسي، فإله استوى عليه. ولكن قالوا: كيف استوى عليه؟ هل جلس كذا أو كذا؟ قالوا: استواءً يليق به، لكن ما الذي قد ثبت في الصورة؟. هو أن هناك عرش، والله جاء فوقه، [لكن ما درينا كيف يكون استواؤه فوقه؟]. أليس هذا الذي يحصل في الذهنية؟. هناك عرش وهناك جلس فوقه، على حد عبارة من يقولون استواءً يليق به.

كلمة: استوى على العرش تبين لك أن الله من حيث المبدأ خلق السماوات والأرض، كونها، لكن السماوات والأرض شؤونها واسعة، مملكة عظيمة، مملكة واسعة، شؤونها كثيرة جداً { كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } (الرحمن: من الآية٢٩) { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ } (السجدة: من الآية٥) شؤون مملكته في اليوم الواحد ينجز فيها ما لا ينجز إلا في ألف سنة مما نعد، فهذا الكون الذي خلقه لم يخلقه ثم يرمي به هناك، خلقه ثم اتجه إلى تدبيره، إلى تدبير شؤونه، تدبير شؤون هذا العالم الفسيح، وهذا هو ما يعبر عنه [بالعرش] الذي يعني: السلطان والمملكة.

الاستواء على العرش معناه: ثم اتجه نحو تدبير شؤونه، هو خلقه ثم دبره، وجاء صريحاً هذا في أول [سورة يونس]، ومعظم ما تأتي عبارة: [استوى على العرش] تأتي في مقام عرض لمظاهر قدرته سبحانه وتعالى فصي

أول [سورة يونس] يقول تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} (يونس: من الآية ٣) يدبر الأمر.. وهم يقولون: [استواء يليق به، وفي الأثر: استواء يليق به!!] وأينما وصلنا عند: [استوى على العرش]: استواء يليق به!

فهم مغلوط للقرآن، بل حط، حط لعظمة القرآن وحكمته. أي: أنه خلق وعندما خلق هذا الكون الفسيح ذو الشؤون، ذو الشؤون الكثيرة لم يتخل عنه، هو وليه، هو ملكه، هو من يدبر أمره، هو حكيم، هو حكيم لا يخلق شيئاً هناك ثم يرم به، ثم ما عاد له حاجة منه.

اتجه إلى تدبير شؤونه، وهذا ما يعني في اللغة العربية، العرب يسمون الملك والسلطان ولاية الأمر يسموها العرش، عرش المملكة، هو أساساً مأخوذ - في لغة العرب، وفيما هو معروف - من الأشياء عند الملوك هو أن يكون للملك عرش يجلس عليه، لا يجلس عليه إلا الملك، حتى ولي العهد يكون له مقام آخر، هذا العرش الذي هو أصله كرسي، كرسي مزخرف كبير مفخم، يضيء على الملك هيبته أيضاً. عرش، عرش تكرر في الذهنية استخدام [عرش.. عرش..] ثم أصبحت العبارة تعني: المملكة والملك.

والقرآن الكريم هو قرآن عربي، هو قرآن عربي، بلسان العرب، وبأساليب العرب يتحدث، فقال: هو خلق هذا العالم السموات والأرض، ثم اتجه نحو تدبير شؤونها؛ لأنه ملكها، عبر عن المسألة بالعبارة المعروفة لدى العرب [الاستواء على العرش].

أذكر أنه في الأردن قبل فترة طبع دينار أردني مكتوب فيه: [بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً من الاستواء على العرش] أو بعبارة تشبه هذه، في الدينار الأردني طبعوه، معروف إلى الآن.

ألسنا نقول: أن المسؤول همه الكرسي، ماذا تعني هذه، عبارة [كرسي]؟ المنصب، المقام، الرتبة التي هو فيها، لا تزال الكلمة معروفة لدينا إلى الآن تستعمل، التعبير عن الملك، عن المنصب، عن المقام بما هو عادة يكون متوفراً لدى الملوك ولدى المسؤولين، فنقول: الرئيس ما همه إلا الكرسي، رئيس الوزراء همه الكرسي، وزير الخارجية همه الكرسي، ألسنا نحن نقول هكذا؟

الذي يسمعك تقول ما همه إلا الكرسي، هل ممكن أن يقول لك: [يا أخي نحن سنبحث له عن كرسي ونوصله إلى بيته من غير أن يزعجنا]، هل أحد سيقول كذا؟ لا أحد يقول لك هذا، هو فاهم أنه يعني: همه المنصب، همه الملك، همه الزعامة.

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} مثل عبارة سورة الحديد {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ} (يونس ٣) تذكرك نفس الآيات في [سورة الحديد]. بما هو بمعنى: يدبر الأمر الذي جاء في [سورة يونس] {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الحديد) أليس هذا هو تصرف الملك، تصرف الملك؟ هذا معنى {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}.

{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الحديد: من الآية ٤) هو معنا، عندما يحاول المتكلمون دائماً أن يعملوا التعريفات لكل شيء فلا يدعوا الموضوع للمعرفة الفطرية الجمليّة تحدث إشكالات، أقل ما يحدث فيها هو تضيق، تضيق المفهوم الذي فيما لو تركت المفردة تتجه نحو الوجدان سيكون بالشكل الذي أيضاً لا يكون فيه ما يتنافى مع توحيد الله سبحانه وتعالى، ما لا يكون فيه ما هو تشبيهه لله.

{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} لا يغيب عنكم، رقيب عليكم، عليم بكم، يحصي عليكم كل شيء، قادر على أن يراكم، يعلم كل الحالات والظروف التي تمررون بها، عليم بذات الصدور.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، هو يعلمها ويعلم ملابساتها، ويعلم دوافعها، ويعلم غاياتها. {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} (العنكبوت:٥) هذه الآيات هي تختلف عن الآيات التي يعقد فيها النعم، أليس كذلك في نفس الأسلوب؟

يتحدث عن ذاته سبحانه وتعالى باعتباره هو ذو الكمال المطلق، وهو الملك لهذا العالم، وهو رب العالمين، وهو ملكهم {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} له وحده ملكها، أليس هذا هو الدليل الكافي على أنه لا يجوز لأحد أن ينطلق نحو التحكم في شؤون عباد الله دون أن يكون له شرعية من عند الله؟ إذا كانوا يقولون: لا.. يجوز هذا، إذاً فيجوز لأي شخص أن ينطلق إلى مركز المحافظة فيتحكم فيها، إلى مركز المديرية فيأخذ المبنى ويتحكم فيه دون إذن من رئيس، ودون إذن من ملك، ودون إذن من رئيس وزراء ولا غيره، هل هذا مقبول في عالمنا؟ ليس مقبول. لماذا نقبله بالنسبة لله سبحانه وتعالى؟

نحن في عالمنا نشهد على أنفسنا.. نشهد على أنفسنا بأننا نجوز على الله سبحانه وتعالى، وفيما يتعلق بشأنه، وفيما هو من اختصاصه ما لا نجوزه ولا نسوغه في ما يتعلق بعالمنا، وفي أنفسنا. هو له ملك السماوات والأرض، ما معنى ملكها؟ من فيها، هو الذي له الحق في أن يلي أمرهم، أن يدبر شأنهم، أن يشرع لهم، أن يرسم هدايتهم، أن يوجههم هو.

عندما يقول: بأن له ملك السماوات والأرض، ليس ملك كأي ملك من الملوك الآخرين هو ملك رحمن رحيم رؤوف رحيم. يعرض القرآن الكريم في آيات أخرى كيف تدبير الله لشؤون خلقه، ما هو الأساس الذي يقوم عليه تشريعه لعباده ورعايته لشؤونهم، وهدايتهم لهم، من منطلق رحمته بهم، هو رحمن رحيم.

{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، إذاً فلا شرعية لأي شخص يتحكم على رقاب الناس، وأليس الناس هم ممن داخل السماوات والأرض؟ أو أنهم هم العنصر الأساس داخل السماوات والأرض، هم من استخلفوا على هذه الأرض فسخرت لهم السماوات والأرض وما فيها، حتى كثير من الملائكة أعمالهم مرتبطة فيما يتعلق بالناس، فيما يتعلق بالأرض {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} (الشورى: من الآية٥) كثير من شؤون الأرض مرتبطة بهم، تأتي من جهتهم ممن اصطفاه الله من داخلهم يقوم بإبلاغ وحيه بإنزال كتبه، ومع عباده حفظة، ومع عباده كتاب، الكل.. الكل حول الإنسان. الكل حول الإنسان.

ثم إذا انتزعنا ملك الله من هذا الإنسان، وقلنا لا حاجة إلى أخذ شرعية من جهة الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بالحكم لهذا الإنسان، والهيمنة عليه، والتحكم في شؤونه، فماذا بقي لله؟ تركنا لله الأشياء الباقية! تركنا له الأشياء الباقية! ثم تأتي إلى المخلوق الرئيسي الذي هو خليفة لله في هذه الأرض، وسخر له الأرض والسماوات وما فيهما، فننتزع سلطان الله منه، ونأتي نحن ولا نربط أنفسنا بالله، بل نأتي لنقول: السلطة ملك للشعب يمنحها من يشاء، هكذا في دساتيرنا العربية عبارات كهذه بالتصريح أو ما يفهم معناها وهو الذي يقول: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ نُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ نَشَاءٍ وَنَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ نَشَاءٍ وَنُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ وَنُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ} (آل عمران: من الآية٢٦).

السلطة ملك للشعب، هكذا نقول! هذه العبارة ليست سهلة، هذه العبارة خطيرة جداً على الأمة، أن تدين بها دولة، وأن يدين بها شعب عبارة خطيرة.

{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} إذاً فهو هو من له الحق أن يدبر شأنهم ولا شرعية لمن لا يعتبر في حكمه امتداداً لشرعية الله سبحانه وتعالى، الذي هو ملك السماوات والأرض، ولا يجوز أن ندين بشرعية أي شخص تحت أي مسمى كان حتى ولو كان تحت اسم [إمام] لا يكون حكمه امتداداً لشرعية الله سبحانه وتعالى.

{وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} هو ملكها، ما أكثر الملوك في هذه الدنيا والرؤساء، لكن أليست الأمور تخرج عن أيديهم في كثير من أحوالهم، وفي كثير من أحوال شعوبهم؟ تخرج الأمور عن أيديهم، ملك قاصر، ملك

الناقصين، مُلك من لا يعلموا سر السماوات والأرض، ملك من لا يعلم بعضهم بكثير مما يخص شعبه، فكثير من الأمور تجري على خلاف ما يريدون، والزعماء العرب الآن هل الأمور تمشي على ما يريدون؟

هكذا تمشي الأمور وتتغير الزمن من حيث لا يشعرون، فهو لا يدري إلا وقد أصبح ينادي بالديمقراطية، وهو من كان لا يريد، أصبح ينادي مثلاً بضرورة أن يكون هناك مجلس شورى وهو ممن كان لا يريد أن يكون هناك أي شخص آخر يحتاج إلى أن يشاوره في أموره، تُفرض الأمور من هنا إلى هنا.

أما الله سبحانه وتعالى فهو وحده الذي إليه ترجع الأمور، وهو الذي يستطيع أن يخلق ويهيئ المتغيرات. وفي الدنيا - عندما تتأمل - أحداثٌ تحصل، متغيرات عجيبة، متغيرات عجيبة، تحولات بنسبة مائة في المائة في بعض الأمور، الله هو سبحانه وتعالى من هو غالب على أمره، من هو قادر على كل شيء.

فكل عبارة من هذه تأتي في القرآن الكريم: {وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ} (هود: من الآية ١٢٢) هو يقول لعباده يقول للمؤمنين: ثقوا بي، انطلقوا في عبادتي، انطلقوا في نصري، وفي العمل لإعلاء كلمتي، وأنا من إليّ ترجع الأمور فلا أدع المجال يقفل أمامكم. هو من سيهيئ، من سيخلق المتغيرات، من سيهيئ الظروف.

{وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} حتى وإن كان الناس هنا في الدنيا يتصرفون بعبيدين عن الله سبحانه وتعالى، فهذا يتزعم على هذا الشعب، وهذا يملك على ذلك الشعب، وهذا يقفز على هذا الشعب وهكذا.

هم ما زالوا في داخل محيط قدرته تعالى {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} (الأنعام: من الآية ١٨) بل كثير من الأمور تفرض عليهم بتهيئة من الله، من حيث لا يشعرون.

ولو تأملنا لوجدنا أنه حتى أعداء الإسلام أنفسهم الذين يحاولون أن يقفلوا كل شيء بالنسبة للمسلمين ينطلقون في مجال ولا يدرون بأنهم يهيئوا أجواء عظيمة جداً للمؤمنين من خلال ما تحركوا فيه؛ لأن الله غالب على أمره.

جاءوا بالديمقراطية لتكون بديلاً عن نظم الإسلام، وعن نظام الإسلام، ولنكون نحن المسلمين يمسح من ذهنتنا أن هناك في الإسلام نظام، هناك ولاية أمر، هناك دولة، فيأتون بالديمقراطية، الديمقراطية نفسها ما الذي حصل؟ يفرض داخلها حرية رأي، حرية التعبير، حرية الكلمة، حرية التحزب، حرية التجمع، حرية القول، أليس هذا هو ما يحصل؟ فكم أعطوا الناس من متنفس عظيم، أعطوا الناس.

من أين جاء هذا؟ هل نقول أنهم جاءوا بالديمقراطية رحمةً بنا؛ من أجل أن لا يكون هناك كبت ولا قهر؟ لا.. لهم أهداف أخرى وغايات أخرى، لكن الله يهيئ حتى من خلال ما يفرضونه هم، وهم يتجهون نحو طمس معالم الإسلام حتى يغيب عن الذهنية اتصاله بأي شأن من شؤون الحياة بما فيها شأن ولاية الأمر، فلا يدرون بأنهم يمتنعون من حيث يشعرون أو لا يشعرون أن الله يهيئ من خلال ما أرادوا أن يفرضوه أن يكون هناك متنفساً لأولياته، وما أكثر - لو تأمل الإنسان - ما أكثر الانفراجات التي تأتي، ما أكثر الانفراجات التي تحصل، لكن من لا يهيئ نفسه لأي عمل في سبيل الله تمر الأشياء ولا قيمة لها عنده، ولا يبالي.

{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (الحديد: ٦) هو من يدبر كل شيء، الليل والنهار هو الذي يدبره فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، يتعاقبان ويتداخلان فينقص هذا حيناً ويطول هذا حيناً آخر، في حركة مستمرة منظمة ومدبرة بأمر الله سبحانه وتعالى، هذا مظهر من مظاهر ملكه، أن له ملك السماوات والأرض هو خلقها ثم تحدث عن استوانه على العرش ليدير شؤونها، ثم ها هو يتحدث كيف يدير شؤونها، وكيف علاقته بها كملك للسماوات والأرض وما بينهن وما فيهن.

{وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} هذا الليل الذي يُجِئُ هذا العالم، أو قطعة من هذه الأرض بظلامه، فيبدو أمام الأنظار وكأنه أصبح يمكن أن يخفي أشياء كثيرة عن الله، يقول: إنه {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} تلك الصدور التي هي ظلمة في داخلها، تجويف الصدر في داخله مظلم، ودخله ماذا؟ داخله هو اجس من النفس، أشياء داخل

النفس، الله يعلم بذات الصدور نفسها، فلا يمكن لليل أن يخفي شيئاً من ما يحصل من عباده، ولا يخفي أي شيء من أشياء هذا العالم عنه.

من هذه الآية قوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} مما نفهم منه بأن الليل والنهار موجودان مع بعض، ثم يحصل بينهما تداخل، فنشهد بأن الحركة حركة مستمرة الليل والنهار وبشكل دائري، كما اكتشف أخيراً وأصبحت الأشياء واضحة فعلاً، قد تتصل بشخص إلى منطقة أخرى في العالم فيكون الوقت عندك نهراً وعنده ليل أو العكس. اتصل بأمريكا تجد الوقت هناك نهاراً ما يزال نهاراً وأنت في الليل.

فأولئك الذين كانوا يقولون أن الأرض هكذا تكوير لها تكوير معين، وأنها فوق قرن ثور وأشياء من هذه، هي خرافات، بينما في القرآن ما يرشد.. ما يرشد فعلاً أو ما يشير إلى أن الأرض بهذا الشكل الذي اكتشفت أخيراً وصورت من بُعد، وأنها كروية الشكل أو بيضاوية الشكل، وأنها تتحرك بصورة مستمرة، ولها حركة حول نفسها، وحركة حول الشمس. فالليل والنهار في هذا العالم متعاقب على هذا النحو.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} (الحديد:٧) بعدما تحدث، أو بعدما قررت الآيات الأولى في ما يتعلق بكمال الله سبحانه وتعالى ثم خلقه للسموات والأرض ثم ملكه للسموات والأرض، وما فيهما.. إذاً آمنوا به، من هو ذلك الذي يمكن أن يكون له هذا الكمال، أن يكون له هذا الملك فتروا أنفسكم ملزمين بأن تؤمنوا به، أو تروا أن عليكم حقاً أن تؤمنوا به من هو هذا غير الله سبحانه وتعالى؟

ثم من هو الذي يمكن أن تخافوه من ملوك الأرض، من رؤساء الأرض، وهم من هم.. من هم بالنسبة لملك الله سبحانه وتعالى؟ من هم بالنسبة لكمال الله سبحانه وتعالى؟ من هم؟ من هو منهم يستطيع أن يغالب الله سبحانه وتعالى؟ من هو منهم يستطيع أن يخرج عن دائرة قدرته وجبروته وقهره لعباده؟ فكيف تخافونهم أكثر مما تخافوا الله؟

كل حديث أو كل آية من هذه الآيات كلها تتجه نحو نفسية الإنسان، نحو نفسية الإنسان لتعزز داخلها الإيمان والثقة المطلقة بالله سبحانه وتعالى.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} (الحديد:٧) لاحظ، تحدثت بداية الآيات عن تدبيره لشؤون مخلوقاته فيما يتعلق بحركة الكون {مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} هو يعلمه.. الليل والنهار في حركتهما المتعاقبة، هو نفسه الذي يحرك الليل والنهار فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.. أليس هذا جانب من شؤون مخلوقاته؟ ثم يتجه إلى الجانب الآخر، وهو الجانب التشريعي جانب الهداية بالنسبة للإنسان ليقول لنا: بأنه من اختصاصه هو، هذا كله من اختصاصه هو سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الملك.

فهو من له الحق أن يشرع لعباده، من له الحق أن يأمرهم حتى فيما يتعلق بأعلى الأشياء لديهم وهو المال: {وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ} هو من له الحق أن يصطفي من عباده رسولاً لعباده فيبلغ شريعته وهدية إليهم {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ} بعد أن قرر لكم بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وأن له ملك السموات والأرض، إذاً فما أنتم إلا عبارة عن مستخلفين فيما بين أيديكم من أموال، هو المالك الحقيقي، هو الخالق لها، وهو المالك الحقيقي لها.

من يحاولون أن يفضلوا سلطان الله عن عباده فيما يتعلق بالتشريع والهداية، وتدبير شؤونهم، وولاية أمرهم يسيئون إساءة كبيرة إلى الله سبحانه وتعالى، فكأنهم إنما يحاولون الله - وسبحان الله أن يقول الإنسان عبارة كهذه مهما كانت لكن الحاجة إليها - أصبح الله شغال لديهم، يولج الليل في النهار، ويدبر هذا الشيء وينزل مطر، و..! شغال لديهم، وهم من يتحكمون في شؤون عباده كما يشاءون، فهم الملوك وهو عامل لديهم، هذه إساءة عظيمة إساءة بالغة.

فِعْلاً كما يقول بعض العلماء: هذا شرك، وكيف لا يكون شركاً وهو يقول للمؤمنين في ما يتعلق بالميتة عندما كانوا يجادلوهم الكفار حولها، كانوا يأكلون الميتة فجاء الإسلام يقول: لا يجوز أكل الميتة، فكانوا يجادلونهم ويقولون: كيف نأكل ما قتلنا ولا نأكل ما قتل الله {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (الأنعام: من الآية ١٢١) أن تطيعوهم في شأن مخلوق واحد من مخلوقاته إنكم إذاً لمشركون؛ لأنكم قبلتم حينئذٍ ما قرروه هم فيما يتعلق بالميتة من أنه لا مانع من أكلها بناءً على أنه [كيف نأكل ما قتلنا ولا نأكل ما قتل الله].

أليسوا قرروا شيء فيها؟ لكن لا. من هو الذي له الحق أن يقرر في شؤون عباده، ويحكم فيهم بما يريد؛ من هو؟ الله سبحانه وتعالى، إذا أطعتموهم في شأن ميتة، نعمة ميتة أو أي حيوان من الأنعام تطيعوهم فتقبلوا حكمهم، ولا تقبلوا حكم الله تكونوا أنتم إذاً مشركون، جعلتم ما هو من اختصاص الله وما هو حق لله جعلتموه للأخرين فأصبحتم مشركين به، مشركين به في ملكه، جعلتم هؤلاء هم الملوك، فهم الذين يقرروا ما يروا في شأن هذه الميتة، والحق فيها إلى الله.

هذا مثال واحد في شأن ميتة، فشان أمة تقرر أنت، وتقبل أنت بأن لطرفٍ آخر الحق أن يقرر ما يريد، وتضرض على نفسك أن تطيعه وتؤمن بما قرره في شؤون أمة! أليس هذا أعظم من شأن ميتة؟ فإذا كانوا مشركين - أولئك السابقون الذين نقول عنهم: صحابة، وصحابه - هم سيطلعون مشركين فيما إذا قبلوا قرار الكافرين في حكم هو من اختصاص الله سبحانه وتعالى.

فما أسوأ الإنسان أن يكون في واقعه ممن يقدم إلهه عبارة عن عامل لدى الآخرين، ويكون الملوك هم الآخرون الذين لا نفترض أن يكون ملكهم شرعية من قبل الله سبحانه وتعالى، بل هم لا يفرضون أن لأنفسهم شرعية من قبل الله سبحانه وتعالى، وإنما شرعية نظامية وفق قانون الديمقراطية، أو وفق قانون الوراثة في التعاقب على السلطة في البلد هذا أو ذاك، فيصبح هو من له الحق أن يحكم، وتصبح أنت من عليك الحق أن تسمع وتطيع، الخطورة عليهم أشد، والإساءة من جانبهم أكثر عندما يحكموا رقاب الناس دون أن يستندوا على شرعية إلهية. بل قَدّْم هذا المنطق بأنه منطوق مرفوض، هو ما يسمى بالحكم [الثيوقراطي] ما يقابل [الديمقراطية] [الثيوقراطية] أي الحكم الإلهي، الله لا دخل له في العالم، ومن ينادون بأن يكون الله هو من يحكم عباده، وأن لا نقبل إلا من له شرعية من الله أن يحكم في أرضه، قالوا: ربط الحكم بالله، ربط السلطة بالله، هذا هو نظام [ثيوقراطي] هو نظام مرفوض! بديل عنه النظام الديمقراطي الذي يجعل السلطة ملكاً للشعب، هذا هو النظام التقدمي والنظام الأفضل، هكذا يقولون.

مع أن النظام الديمقراطي أو هذه العناوين هي من قبل الإسلام بفترة طويلة عند اليونانيين، وعند الإغريق، عند فلاسفتهم هم من تفلسفوا وحلوا ما يتعلق بالأنظمة فقدموا عناوين وقسموها إلى تقسيمات معينة، لكن الإسلام أصبح تخلصاً، والديمقراطية هي ماذا؟ هي تقدم، وهي من عمرها قد يكون ربما نحو ألفين سنة أو أكثر من أيام الإغريق، ثم يأتي الإسلام دين للعالمين، ورسوله رحمة للعالمين ثم لا يكون لديه أي نظام، لا يكون لديه أي نظام، يكون امتداداً لسلطان الله في أرضه، إذا كان تدبيره في ما يتعلق بالإنزال للهداية إلى خلقه لا بد أن يرتبط بشخص {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} (الحج: من الآية ٧٥) فولاية شأن عباده في هذا الجانب لا بد أيضاً أن تكون مرتبطة بأحد من عباده، وهو هو من له الحق أن يصطفى ويختار ويعين ويحدد هو سبحانه وتعالى.

فنحن عملنا نحن المسلمين عملنا ثورة على الله - إن صح التعبير - ونزعنا سلطاننا من يده، وجئنا لنقول: الأمر لنا، والملك لنا، والزعامة لنا، فنحن من نتحكم فيها ونمنحها من نشاء!، بينما هو في هذه الآيات يتحدث معنا بأنه هو من - بعد أن قال: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} - فهو يدبر شؤون مخلوقاته، سواء ما كان حركة هذا العالم

بكله، بما فيها حتى إمساك السماوات والأرض أن تزولا { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ } { فاطر: من الآية ٤١} .

ثم يقول لنا بعد مما يدل على أنه فيما يتعلق بالهداية والتدبير والتوجيه والأوامر والنواهي هو من يختص بها سبحانه وتعالى، وهي أيضاً مظهر من مظاهر ملكه، وحق من الحقوق له التي يجب أن نؤمن بها، أنها حق يختص بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه الملك، وهو الإله، وهو الذي خلق: { فَأَلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } هذا - كما أسلفت سابقاً - له علاقة بما يتعلق بمعرفة الله سبحانه وتعالى.

إذاً ليس معرفته كما يقال فقط [أن تعرفه إلهاً واحداً فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولدأ] فتحفظ هذه الكلمات كعناوين.. أن تعرفه إلهاً، هو إلهك هو ملكك، ثم ماذا يعني أن أؤمن بأنه إلهي وإله العالمين، بأنه الملك عليّ وملك العالمين، بأنه ربي ورب العالمين؟، هو هذا: أن تكون مؤمناً بأنه هو وحده الذي له الحق أن يتصرف في شؤون عباده كلها.

أوليس القرآن الكريم هو كله يدور حول جانب الهداية لعباده؟ أنزله من عنده، حتى لم يكتف أن يصطفي أحداً من رسله ثم يقول له انطلق أنت فشرع للناس كما ترى، بل هو الذي يتولى التشريع لهم { فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ } {البقرة: من الآية ٢١٣} هو الذي له الحق أن يشرع، وهكذا كان رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في كل قضية ينتظر، ينتظر كيف سيكون الحكم فيها من قبل الله سبحانه وتعالى، وهو من قد اصطفاه الله وأكملاه.

فالذي نريد من خلال معرفة الله هو أن نفهم معرفة واسعة، كلمة [ملك]، أنه ملكنا، تردت في القرآن الكريم كثيراً، ونحن نؤمن بها، نؤمن بأنه ملك الناس في هذه الدنيا، وأنه ملك يوم الدين، أليس كذلك؟ لكن نجهل ماذا يعني هذا، وهو الذي نريد أن نفهمه؛ لأنك قد تدخل في الواقع في اعتقادات، في رؤى، في وجهات نظر هي متناقضة مع ما تؤمن به من أن الله هو ملك الناس، وأنه ملك العالمين في الدنيا والآخرة، ملك الدنيا والآخرة، فتكون في واقعك أسوأ من أولئك الذين قال الله: { وَإِنْ أَعْطِمْوهُمْ إِيَّاكُمْ لَمُشْرِكُونَ } .

وحيثما نعرف - معرفة واعية - أنه سبحانه وتعالى هو ملكنا إذاً فلنثق به؛ لأنه هو العليم بذات الصدور، هو الذي يحرك هذا العالم بكله، حركة الليل والنهار، هو يعلم كل ما يدور في هذا العالم، فلماذا لا تثق به.. فنتولاه؟ ثم تنطلق في توجيهاته من منطلق الثقة به.. هذا ما نحاول من خلال كل درس.

وأسال الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لحسن معرفته والثقة به إنه على كل شيء قدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

[الله أكبر / الموت لأمریکا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد

بإشراف

يحيى قاسم أبو عواضة

بتاريخ ١٠ / رمضان ١٤٣١ هـ

الموافق ٢٠ / ٨ / ٢٠١٠ م